وعد ...

بقلم غسان كنفاني

ليس لدي ما اقوله لك ، يا سيدتي المرتحلة الى التراب ، ليس لدي ما اقوله لك بعد . اننا ننتظر ، ما زلنا ، مثلما انتظرت انت طويلا .

ونبكي .

نبكي غياب الوطن والصديق ، نبكي موتك الفاجع ، نبكي موتنا ، وليس لدينا ما نقوله لك بعد ، انت التي تطلين علينا من وراء جدار الموت ، ونحن الذين نظل عليك من وراء جدار الخجل .

يا سيدتي واستاذتي وشراعي في بحر التيه والمنفى ، اقدر لي ان اقف انا لاقول بك ما لا استطيع ان اعبر عنه ؟ لو كنت واقفا الآن في بلادك ، لو كنت واقفا في عكا ، اهيل عليك التراب والدموع والحبر الشجاع ، لكان لدي اذن الكثير لاقوله .

لقلت لك : يا سميرة العزيزة ! لقد اخترق القلم الرمح طريقه عبر السد الكئيب ، وها انت ذا في تراب بلادك قطرة خصب .

يا سميرة العزيزة ! ها انت ذي مينائك بعد ان ابحرت فوق الكلمة السريعة جيلا من التيه والعذاب .

يا سميرة ! يا اختي ومواطنتي ورفيقتي في المنفى والطموح والانسياب ، لقد وصلت . لقد تعبت وبكيت وتعذبت وتهت في سيناء لا حدود لها ولكنك وصلت . وها هو سور عكا الثقيل الذي هده الانتظار يشهد ، وها هو السنديان الثقيل يشهد ، وبل الفخار يشهد .. وجامع الجزار يشهد .

لكنت قلت لك ذلك كله ، لو كنت واقفا في عكا ..

ولكن ما الذي اقوله الان ؟ ماذا يستطيع المنفي فوق التراب أن يقول للمنفي تحت التراب ؟ ما الذي يستطيع زورق مهجور أن يقول لزورق مهجور ؟

اية كلمة اقولها لك ، انت التي جاء موتك ذاته في الارتحال والتيه ، وعلى الطرق التي قطعت عروقنا واعصابنا وفقأت حبات عيوننا ؟

اعرف ، اعرف يا سميرة انك لست من الطراز الذي يستهويه النواح وسواد الحزن ، ولكن نحن ، نحن الذين بقينا معلقين على حبل الانتظار ، نشهد تساقط الرفاق وموت الزنود وجفاف الحبر ، ما الذي تبقى لنا غير ان نبكيك كي نكتشفك ؟ ما الذي تبقى لنا غير ان نغتسل بمرارة الحزن كي نضحي اكثر نقاوة ؟ ما الذي تبقى لنا غير ان نعرف معنى الحزن العميق ، غير ان نخبز رغيفنا اليومي في جحيمه ، غير ان نشربه حتى القرار ، غير ان نعلقه على صدورنا ووجوهنا . نعذب انفسنا بالحزن ، نتوضأ به ، نشربه ، كي يكون العذاب طريقنا الى الخلاص ، كي نستحق الفرار منه.

ما الذي تبقى لنا يا سميرة غير ان نعرف شرف الحزن ؟ شرف الحزن الذي يستولد غابة الفرح ؟ شرف الحزن الذي يمطر انتسابا وصدورا وعيونا على الطريق ؟ الحزن الذي يصنع من الانسان المهزوم المغلوب على امره فارس الضوء والراية ؟

لست انا الذي سيقف عند كل حرف كتبه قلمك الشجاع ، فانا الذي اعرف ان الكلمة عندنا وسيلة ، وانها ان لم تستطع ان تتحول الى حجر في يد الاعزل ، الى جواد تحت رجل طريد ، الى رمح في يد فارس ، الى ضوء في عيني اعمى ، فلتسقط الى النسيان والغبار والصدأ .

ولكنني انا الذي اعرف كم يتعين علينا ان نحول من كلماتك جناحي نسر ، انا الذي اعرف ان اكبر تشريف ترينه لكلمتك هو ان نجعل منها حجارة الطريق الى الثار .

ان نقول انك كاتبة من الطراز الاول يضعنا خارج حقيقتك . فانت لست كاتبة الا بمقدار ما كنت ترين في الحبر نهر الحياة الذي لا يجف ، تيارها الذي يحمل على صدره مراكب العائدين .

فاذا اردنا ان نهيل عليك المديح فليس ثمة الا ان نكمل طريقك الصعب ، ان نكمل باصرارك رحلة التيه والمنفى ، أن نجعل كلماتك تنبض .

أن نعوض صمت قلبك بخفقان الكلمات . ان نبعثك حية بالحروف التي كانت سلاحك . ان نعدك . ان نسقي بمحبرتك بذور الانتساب الى ارض وانسان وقضية . ان نجعل من ابطال قصصك المعذبين رجالا ونساء لهم ارضهم وسماؤهم وهواؤهم .

فذلك وحده شيء يكرمك ، ويبعثك حية ، يجعل من كل حرف خلفه قلمك مقاتلا في الصف الاول .

ذلك وحده يخلدك ، وهو دورنا .

فانظري الينا ، يا سيدتي المرتحلة . انظري الينا من وراء جدار الموت كيف نخترق جدار الخجل ، لتمطر دموعك على دموعنا خصبا ورعدا يفجر الارض ويمد فيها طرق الزاحفين الى الشمس .

لا . فنحن وان كان الحزن يطحننا ، الا انه يجعل منا خبز المقاتلين والفقراء واطفال فلسطين المكبلة بالهجر والغصة . ان جروحنا يا سميرة تفتح شفاهها الحمراء في لحمنا فنزرع فيها بذور بأس جديد. لقد روت دموعنا حقولا لا بد لها ان تطرح مواسمها ذات يوم، وسيحصد اطفالنا من ارضها الخصيبة اقلاما مثل قلمك ، ورماحا مثل رماح المقاتلين الذين يموتون في سبيلنا ، وسيحصدون ، ذات يوم ، دموع الفرح .

لقد كانت حياتك وعدا انقصف فجأة فاوجعنا جميعا ، عدت صدورنا على الجراح وتعودت اكفنا على حصاد الشوك . وبكيناك ، بكينا ان تغيبي قبل ان يغيبوا عن عكا ، ومضغنا الحزن .

مضغت الحزن وانا اجرجر ورائي سلاسل الخجل . يا سميرة ! لقد فقدت امي ، ثم فقدت وعد الرجوع ، ثم فقدتك انت ، ولكنني اقول لك انني ، مثلهم جميعا ، لم نفقد لا خطواتنا ولا طريقنا ، ايكفي ان نكرمك بوعد ؟ ان نقول لك : يا سميرة !! اجل ! « عرب ولا نخجل ، ونعرف كيف نمسك قبضة المنجل ، وكيف يقاوم الاعزل ؟ » .

ايكفي ان نكرمك بوعد ؟

اذن نحن نعدك .

غسان كنفاني